على شفير القبر

١٩/ ٦/ ١٤٣٧هـ

إذا أردتَ أن تـرى مظهرًا مـن مظاهر الأخوّة الإسـلامية فاحضر دفنَ جنازة؛ لترى جموعَ الناس تُقْبلُ من داخلِ البلد وخارجه؛ لتشـارك المصَابَ في مصيبته، وبعضُهم قد لا يَمتُّ إلى المصاب بِصِلةِ قرابةٍ أو جوارٍ أو صحبةِ عمل.

في المقـبرة ترى عظمةَ هذا الدين في صيانـة التوحيد وحمايته من كل ما يكدّره، أو يكون سـببًا في خـدش صفائه، في صـورٍ متنوعة: كمنع الصـلاة عند القبور، أو الصلاة إليها، أو الذبح عندها، ومَنْعِ رفْعِ القبور إلى مسـتوى بارزٍ عن بقية الأقبُر، كما في حديـث عليّ رضي الله عنه ـ في وصيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ـ: «**ولا قبرًا مشرفا إلا سوّيته**»[1].

وترى صورةً من صور تكريم المسـلم بعد وفاته؛ بدءًا من تغسـيله وتكفينه، ومرورًا بطريقةِ دفنه ومنعِ الحيّ من الجلوس على القبر؛ فحرمة المسلم ميّتًا كحرمته حيًّا.

ولا أظن مَن يحضر هذه الشعيرةَ مشاركًا في الصلاة واتباع الجنازة، إلا ويلفت نظره بعضُ الملاحظات والأخطاء التي تصدر من بعض الناس،

(١) رواه مسلم (رقم٩٦٩).

لا عن عمد -إن شاء الله- وإنما غالبها عن غفلة، أو جهلٍ بالحكم، يحملهم على ذلك حبُّ الخير؛ لذا أحببتُ التنبيه على بعض الأخطاء التي تقع من بعض الناس؛ لعله يُسهم في تقليلها وتجنّبها، فمن ذلك:

- مزاحمة أهلِ الميت وذويه على القبر، ويَكثر هذا من بعض الصغار -أصلحهم الله- والأَوْلى أن يُنَبّه الكبار، ويُعَلّمَ الصغار على احترام هذا الحق، ويتأكد إذا كان الميت امرأةً.

- التزاحم الشديد عند الدفن، وظنُّ بعضهم أن أجر اتباع الجنازة مرتهن بالمشاركة في حثو التراب، وهذا وهْم، وهو يسبب إرباكًا للمشتغلين بالدفن كما هو معلوم.

  والثابت في السنة الصحيحة أن أجر القيراطين معلّق بأمرين: الصلاة عليها، ثم تشييعها، وليس فيه المشاركة في الدفن، وربما تعلّق بعضُهم بحديثٍ ورد في هذا الباب، ولا يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

- الإصرار على معانقة أهل الميت، وهذا قد يُحتمل فيمن قدِم من سفر، أو لم يرَهمْ منذ زمن، لكن ما الحاجة لذلك من قِبَل جيرانه، أو مَن شاهدهم قبل موت الميت بساعات أو وقت قريب؟ كلٌّ من عانى الوقوف للعزاء، وتعزية المئات يُدرِك العنَتَ الذي يَلحق المعَزّين بمثل هذا العناق الذي لا حاجة له.

- المقبرةُ أحدُ مواضع الاعتبار، والتفكر في المصير المحتوم، وهي أحد

---

(١) إن شئت أن تنظر في علة هذا الحديث، فراجع المسألة رقم (٤٨٣) من علل الحديث لابن أبي حاتم (٢/ ٤١٧).

المواضع التي كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يؤثِرون فيها الصمتَ إلا لحاجة، ومع هذا فإن بعضَ الناس -وهو مشتغل بدفن الميت- يرتفعُ صوته دون حاجة، مع أن جميع الاحتياجات المتعلقة بدفنه قريبة، يمكن الوصول إليها بالإشارة أو بصوتٍ منخفض.

وأسوأُ من ذلك أن تَرى بعضَ الناس يتحدث فيها بحديث الدنيا، أو يقهقه، ويضحك، بل قد سمعتُ شبابًا يتحدثون في الرياضة والناس منشغلون بالدفن!

وحدثني مَن أثق به أنه سمع من يتحدث بالجوال على شفير القبر في قضايا البيع والشراء! أفي هذا المكان؟!

ومنهم من يكدّر صفوَ التأملِ والسكون بأصواتِ نغماتِ جوّاله المزعِجَة، وبعضُها موسيقا محضة!

وإنني أتساءل: إذا لم يكن وقتُ التشييع فرصةً للتأمل والتفكر، والبعد عن ملذات الدنيا الملهية؛ فمتى نعتبر، ونتذكر؟

وقد قال بعضُهم: أصبحتُ لا أجدُ ما كنتُ أجِدُه قديمًا في أوقاتِ تشييع الجنائز، فلقد كان حضورُ دفنِ ميتٍ واحد كفيلاً بإيقاظنا من غفلتنا أيامًا عدة، وتنشيطنا للطاعة بِضع ليالٍ، وأما هذه الأيام فصرنا نشهد جنائز عدّة في صلاة واحدة، ولا نكاد نجد أثرًا، فصار الإنسانُ يحتاج إلى زيارةٍ مقصودة-من دون تشييع- يخصّ بها المقابر، لعل القلبَ يَلين، والنفسَ تتذكر، ويذهبُ عن العينِ قحطُها وجمودُها، وتتذكر الآخرة. فاللهم، رحمةً من عندك، تُصلح بها قلوبَنا، وترزقنا الاعتبار، وتُحسِن بها منقلبنا إليك، وتنوّر بها على أهل القبور قبورَهم.